أنساق شعر الثّورة والتّمرّد عند "أحمد مطر"

The Poetry of the Revolution and Rebellion. Case Study: Ahmed Matar's Poetry

*** سميّة هريقي**

جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم، (الجزائر) soumia72@yahoo.com

أ/د عمر معراجي

جامعة عبد الحميد بن باديس ،مستغانم، (الجزائر) omaaradji@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/09/09 تاريخ القبول: 2020/12/16 تاريخ النشر: 2020/12/24

ملخص: يسعى هذا المقال إلى الكشف عن بعض الأنساق الشّعرية المخبوءة في ما وراء جماليّة الخطاب الشّعري المعاصر، ولقد اخترت في هذه الدّراسة أحد النّماذج الفذّة والمتميّزة تمثّلت في الشّاعر الظّاهرة الثّائر السّاخر، أحمد مطر الذي لطالما كان القلم المحرّك للثّورات والنّاطق باسم الشّعوب، هذا الدّور الذي وفّر له فرصة تقمّص الشّاعر القتيل بعدما عانى من ويلات النّفي والغربة وتقييد الحرّيّات، من هنا حاولنا قراءة بعض نصوصه ولافتاته الشّعريّة وتقفّي تلك الأنساق الشّعريّة ودلالتها، وقد كان الرّفض والتّمرّد من أبرز ملامح القصيدة المعاصرة شكلا ومضمونا.

كلمات مفتاحية: الخطاب، المعاصرة، الشّعر،الأنساق، الثّقافة.

Abstract: The present research paper attempts to reveal some of the poetic patterns hidden beyond the aesthetics of contemporary poetic discourse, and I have chosen in this research one of the most unique and distinguished examples of the well-known poet, the revolutionary satirical: Ahmed Matar who has always been the engine of revolutions and the spokesman of the peoples. The latter provided him with the opportunity of reincarnation of the dead poet after suffering from the exile, alienation, and restriction of freedom, from here we tried to read some of his texts and poetic banners to comprehend better those poetic patterns and their significance, and the conclusion was that his poetry comprised themes of rejection and rebellion, such constitutes the most prominent themes of contemporary poetry in form and content.

Keywords: Speech; contemporary poetry; poetry; motifs; culture.

*المؤلف المرسل: هريقي سميّة ، الإيميل: soumia72@yahoo.com

1. مقدمة:

تعدّ الأنساق الثّقافيّة من أبرز الرّكائز التي نادى بها مشروع النّقد الثّقافي، بل إنّ النّقد الثّقافي ينبني في أساسه على النّسق، والذي يتمثّل في النّسق الثّقافي والتّاريخي للنّصوص والتي تختفي بقصد الكاتب أو بغير قصد تحت عباءة الأدبيّة والجماليّة فيكون لها دور ثقافي أو إيديولوجي وتتجاوز بهذا مجرّد الوجود الظّاهر في النّصّ، "إنّ الخطاب البلاغي الجمالي يخبئ من تحته شيئا آخر غير الجمالية، وليست الجمالية إلّا أداة تسويق وتمرير لهذا المخبوء، وتحت كلّ ما هو جمالي هناك شيء نسقيّ مضمر، ويعمل الجماليّ على التّعمئة الثّقافيّة لكي تظلّ الأنساق فاعلة ومؤثّرة ومستديمة من تحت قناع الجماليّة"[1]، إذ أنّ كلّ ما تشتغل عليه العمليّة النّقديّة الثّقافيّة في كلّ تنظيراتها تتمثّل في الأنساق، فما هي أنساق التّمرّد والثّورة في الخطاب الشّعري المعاصر؟ وأين تجلّت في التّجربة المطريّة؟

إنّ الشّعر المعاصر هو الصّياغة الفنّيّة لروح الحضارة التي شملت جوانب الحياة المختلفة، وإنّه الموقف الذي ينبغي أن تتحدّد أبعاده أمام المدّ الحضاري المتنوّع، فافتقار بعض الشّعر إلى هذه الخصّيصة يخرجه من دائرة الشّعر ويجرّده من دعامة أساسيّة من دعامات بنائه المتطوّر على الصّعيديْن الفنّي والاجتماعي[2].

إذا كان روّاد الشّعر الحديث قد اختلفوا في تحديد مفهوم التّراث والأصالة، فإنّهم أيضا اختلفوا في تحديد الحداثة والمعاصرة أيضا، ذلك أنّ الحداثة مصطلح لمفهوم شامل بعكس مفهوم التّجديد الذي قد يقتصر على الوزن أو القافية أو الموضوع، وأمّا المعاصرة فالشّاعر"مطالب بقصيدة تحمل روح العصر حتّى في وصف الخيمة والنّاقة والجمل"[3]، بمعنى أنّ الشّاعر إذا وصف استعمل في وصفه مصطلحات العصر ولو كان الموضوع قديما.

في هذا الصّدد لا يمكن أن نقول أنّ كلّ شعر معاصر هو حداثي، وليس كلّ شعر حداثي معاصرا فكثير من الشّعراء المعاصرين انتفت عنهم صفة الحداثة، والتي أُثبتت لشعراء عاشوا حقبا زمنيّة قديمة كـــ"أبي تمّام" و"بشّار بن برد"[4]، لهذا تمكن الشّعراء المعاصرون من جذب القارئ المعاصر وذلك لوعيهم لجلال وعظمة الخطوة التي اتّخذوها في التّجديد الذي لم يقتصر على الوزن أو الجرس الموسيقي، وقد ظهرت مجلّات وصحف أدبيّة تتبنّى هذا النّوع الأدبي فانتشرت فيها النّماذج الشّعريّة والمقالات النّقديّة، كما دُعّم ذلك بوجود مطابع ودور للنّشر ترعى هذا النّتاج الأدبي الجديد، كما نظّمت لذلك مهرجانات شعريّة في مختلف المناسبات، وبدأ الشّعر المعاصر يفرض وجوده إلى جانب القصيدة العموديّة، وقد ظهر في هذا الصّدد عدد من المنظّرين والنّقّاد الذين أَثْرَوْا المكتبة النّقديّة وأَثَّرُوا في الذّوق العامّ كـــ"أحمد سعيد أدونيس"، و"يوسف الخال"، و"محمّد النّويهي" وغيرهم، وساعدت التّحوّلات الاجتماعيّة والثّقافيّة التي عمّت المجتمع العربي وجعلته يتقبّل الأفكار الجديدة ليس في الشّعر فقط، وإنّما في مختلف النّشاطات الثّقافيّة[5]، وللشّعر العربي دور كبير في كلّ العصور التي مضت وفي كلّ المجالات الأدبيّة والاجتماعيّة والفكريّة والسّياسيّة، وقد تطوّر بتطوّر الشّعوب العربيّة والإسلاميّة جرّاء المثاقفة والتّمازج بين الحضارات والتّأثير اللّغوي والفكري بين الشّعوب الأخرى ممّا أدّى إلى ظهور فنون شعريّة أخرى، وحدث تغيّر من حيث المضامين واللّغة والأساليب والأوزان، فكثرت بذلك فنون الشّعريّة خاصّة في العصر الحديث والمعاصر، فظهر شعر النّكبة والحريّة، والثّورة العربيّة وتطوّرت أغراض المدح والفخر والهجاء والوصف، وبرزت قصيدة النّثر وقصيدة الشّعر الحرّ، وانتشرت بين الشّعراء المعاصرين والشّباب منهم خاصّة، كما أنّنا نجد الشّاعر العربي المعاصر اعتمد في كتابة نصوصه على ما هو موجود في السّاحة الغربيّة، فتشكّلت بذلك لديه المعرفة التي اكتسبها نتيجة احتكاك أفكاره بأفكار أقرانه من الشّعراء والأدباء الغربيّين، ذلك ما أثرى تجاربهم الشّعريّة، وهذا ما يُحْسَبُ لصالحه إذا ما اتّفقنا على أنّ الشّعر فنّ إنساني بالدّرجة الأولى.

كما تجدر بنا الإشارة إلى أنّ روّاد شعر الحديث والمعاصرة، لم يتخلّوا عن التّراث الشّعريّ الأصيل في التّعبير عن هموم أمّتهم وجراحها وآلامها وآمالها، ولم يديروا ظهورهم للقصيدة الأصيلة كما فعل بعض أصحاب المواقف والمذاهب المريبة، وإنّما وضعوا التّراث موضع الاعتزاز وانطلقوا منه نحو قصيدة جديدة ومعاصرة مجدّدين ومحدثين ومبدعين، فهم الدّافع الفنّي لضرورة التّحديث، ولم يروا في تحديث الشّكل سوى وسيلة لخدمة المضمون والتّغلغل في المعاني كما رأوا في حرّيّة الشّكل ساحة واسعة للإبداع، فنجحوا في تجديد الشّكل والمضمون معا ويكفي أن نقرأ لـــ"السّيّاب"، و"الفيتوري"، و"نزار

قبّاني" وصولا إلى شعر "أمل دنقل"، "محمود درويش"، "أحمد مطر"، و"سميح القاسم" وغيرهم، لنقرأ في أشعارهم الحداثة الشّعريّة دون التّنصّل من التّراث الشّعري الأصيل.

لقد استجاب الشّعر المعاصر للنّسق الثّقافي؛ لأنّه خطاب أدبيّ يحمل كلّ القيم والسّلوكات، وفي الشّعر العربي جمال وأيّ جمال، ولكنّه بعد الدّرس النّقديّ الثّقافيّ صار بإمكاننا رصد أنساق شعريّة خطيرة جدّا تكشف لنا عيوب الشّخصيّة العربيّة لكون الشّعر أحد المقوّمات التّأسيسيّة للشّخصيّة العربيّة التي ورثها العربيّ بحسناته وسيّئاته أيضا، ونجد التّاريخ العربي ما يشير إلى أنّ هناك من الشّعراء أنفسهم من كان لديهم إحساس بعيوب الممارسة الشّعريّة، كقول "الفرزدق" مثلا "أطعتك يا إبليس سبعين حجّة"، وكتب الشّعراء تمتلئ بالتّحذيرات من الشّعراء والحثّ على تجنّبهم وعدم التّعرّض لهم[6].

إنّ النّسق الثّقافي لم يكن إلّا خطابا آخر ورث قيم القبيلة وحوّلها إلى قيم فرديّة، ثمّ تحوّلت عبر انغراسها في النّسيج اللّغوي إلى قيم نمطيّة للشّخصيّة العربيّة الثّقافيّة، وبما أنّ النّسق هو نسق التّأثير لا نسق الإقناع فإنّ النّفس العربيّة قد جرى تدجينها لتكون نفسا انفعاليّة تستجيب لدواعي الوجدان أكثر من استجابتها لدواعي التّفكير وصارت الذّات العربيّة كائنا شعريّا تسكن الشّعر ولا تتحرّك إلّا حسب المعنى الشّعري الذي نطرب له غير عابئة بالحقيقة، وما كانت الحقيقة قطّ قيمة شعريّة[7].

إنّ الأنساق المضمرة لا يقوم بصناعتها الكاتب في نصّه قاصدا ذلك مهما بلغ منه الوعي والمهارة، لذلك في تجاوزه بحكم عباءات وغطاءات مختلفة غالبا ما تكون جماليّة "إنّها تستخدم لأجل اختفائها أقنعة عديدة لعلّ من أهمّها وأخطرها في الوقت ذاته قناع الجماليّة اللّغويّة، وعبر البلاغة وجمالياتها تمرّ الأنساق آمنة مطمئنّة من تحت هذه المظلّة الوارفة، وتعبر العقول والأزمنة فاعلة ومؤثّرة"[8]، إنّها تملك قدرة هائلة في التّخفّي، لذلك تحتاج سبرا وحفرا وتنقيبا للكشف عنها أو بعضها.

2. التّمرّد والقلق وظهور القصيدة المعاصرة:

لا شكّ أنّ الانعطاف الذي شهده الشّعر العربي المعاصر كان بمثابة الصّدى لتلك الأزمات التي هزّت الذّات الإنسانيّة، فقد جاءت مأساة تقسيم فلسطين عام 1948م، وكانت الصّدمة الحقيقيّة للإنسان العربي الذي أحسّ بعجزه أمام القوّة الصّهيونيّة، وقد أخذت القضيّة الفلسطينيّة جانبا كبيرا من اهتمام العرب وكانت قضيّة الشّعراء أيضا وانعكست في الأشكال والهيئات[9]، "وليس غريبا أن يتولّد من هذا الوضع المأساوي شعور بالحزن يغمر العامّة والشّعراء بشكل خاصّ، فكم لمس الشّعراء هذه المأساة بالتّصريح حينا وبالرّموز والإيحاءات في أغلب الأحيان"[10].

لا شكّ أنّ هناك علاقة وطيدة بين القصيدة والواقع العربي، والشّاعر العربي ابن بيئته كما يقال، ولا يتولّد شِعْرُهُ إلّا من أزمة، يقول "عبد الرّزاق عبد الواحد" في حوار له: "لدينا وطن ضائع، ولدينا ملكيّة وإقطاع وتدهور ثقافي عامّ، وجوع حقيقيّ ونظام اجتماعي مهترئ، فكانت هناك حركة تمرّد شاملة تبدأ من التّظاهرات في الشّاعر وتنتهي في الفنّ والثّقافة، أي أنّ عمليّة التّغيير كانت حاجة ضروريّة"[11]، وهذا ما يدلّ على أنّ هناك ارتباطا وثيقا بين القصيدة المعاصرة المتمرّدة عل طقوسها القديمة، وبين المواطن العربي المتمرّد على أنظمة الحكم التي مارست كلّ أشكال التّضييق والظّلم والتّعسّف، فحركة

الشّعر العربي الحديث حركة ثوريّة مثلها مثل ثورة المواطن في مطالبها السّاعيّة للتّغيير، فالمواطن الثّائر يسعى لعيش حياة جديد بعزّة وكرامة، والشّاعر الثّائر يسعى لمستقبل خيالي يرسمه من خلال أبياته يتجاوز به واقعه الأليم.

إنّ الشّاعر هو ضمير العصر والنّاطق الرّسمي للواقع وهو المرآة العاكسة لتغيّرات المجتمع والعالم بأسره، وقد جاء التّغيير في الشّعر تعبيرا عن تلك الثّورة شكلا ومضمونا، لأنّ ثورة الشّعر لم ترتبط بذلك التّغيير الذي شمل الأشكال نتيجة لتغير الوجدان الفنّي والتّعبير الشّعري، بل امتدّت لتشمل معنى الشّعر أيضا[12].

إنّ التّراث الشّعري دون جدال هو القصيدة الموروثة عن "امرئ القيس"، و"جرير"، و"البحتري"، و"المتنبّي" وغيرهم، هؤلاء الذين عزّزوا دعائم "الخليل بن أحمد الفراهيدي" لسنوات طوال، لكنّ الحياة كما عبّر عنها "برنارد شو"" Bernard Shaw":"في الحياة كما في الشّعر، اللّاقاعدة هي القاعدة الذّهبيّة"[13]، فقد بدأت قواعد الخليل في الشّعر تعرف نوعا من الهجر أو التّغيير وأحيانا الهدم لا من حيث الشّكل فقط، بل مضامين القصيدة أيضا ومواضيعها.

إنّ التّمرّد يعني الثّورة والرّفض للوضع السّائد، ومن حيث هو الثّائر والمتمرّد، إنّه هو الذي يقول: كلّا وفي الوقت نفسه يقول نعم...فما معنى هذا الرّفض؟ معناه عند "ألبير كامو"" Albert Camus "، أنّ الأمور طالت أكثر ممّا ينبغي...وأنّه ثمّة حدّا يجب الوقوف عنده أو إلى هنا وكفى، أمّا بعد هذا فلا[14]، وقد تجسّد هذا الرّفض والتّمرّد في كثير من قصائد الشّعراء المعاصرين وفي أعمالهم الأدبيّة، ولعلّ أبرزها ما يجب أن نشير إليه هنا هو أنّ التّمرّد في الفنّ "ليس ترفا إبداعيّا يمارسه الفنّان بقدر ما هو موقف وجودي يحاول أن يفهم العالم ككلّ ، وأن يشمل نوعا من الجدل حول جوانبه المعقّدة التي تستعصي على الفهم، وهنا مناط الحركة في أدب التّمرّد"[15].

انطلاقا من هذا المفهوم نفهم علاقة التّمرّد أو الرّفض الاجتماعي بالتّمرّد في الأدب، والفنّ سواء اعتبرنا أنّ الوضع هو الذي أثّر في الأدب، أو أنّ الأدب والفنّ أدّى إلى ذلك الوضع وكلاهما جائز، فاعل ومفعول ومؤثّر ومؤثَّر فيه، إلّا أنّ الشّيء الذي لا يمكن إنكاره دعوة الشّعراء للحريّة والتّحرّر والرّفض للواقع والثّورة ضدّ الوضع انطلاقا من قصائد "الشّابّي" التي تدعو إلى الحريّة وشدّ الهمّة، والتي كان يهتف بها أصحاب الثّورات في كلّ البلدان، إلى أشعار "محمود درويش" التي تمجّد القضيّة الفلسطينيّة وتزيد من وطأتها في نفوس العرب إلى أشعار "أحمد فؤاد نجم"، و"نزار قبّاني"، و"أدونيس" إلى قصائد "تميم البرغوثي" الثّائرة، إلى المعاني الثّائرة على لسان الشّاعر المصري "هشام الجخّ" والرّسائل المشفّرة للشّاعر "أحمد بخيت" وكثير من الشّعراء الشّباب، وقبل كلّ هذا لافتات "أحمد مطر" التي تدعو بكلّ صراحة إلى النّهوض في وجه الظّلم وتكسير كلّ الحواجز، ورفض كلّ القيود، والسّعي إلى الانعتاق بأيّ الطّرق والوسائل ولو بحتف النّفس، هذا ناهيك عن الأجناس الأخرى من الأدب كالرّواية مثلا التي لعبت دورا هامّا في إشعال فتيل الثّورات كروايات "حسين هيكل"، و"توفيق الحكيم" وكتب "طه حسين" و"نجيب محفوظ" التي وإن لم تصرّح فقد لـــمّحت، والقارئ فطن لبيب؛ لأنّه يقرأ مشاعره وآماله وآلامه في كلّ معنى يصادفه.

عند هذا المنعرج يمكن تصنيف الأدب إلى فترتيْن: الأدب ما قبل الثّورة وهنا تجسّدت دعوة الشّاعر إلى الثّورة وساهم الأدب في اشتعالها هنا وهناك وبكلّ الأشكال، وأمّا الفترة الثّانيّة فيمكن تسميتها أدب ما بعد الثّورة، وهنا أفاضت

الثّورة الحناجر وبدأت الأقلام تتناثر شعرا ونثرا، رسما وتشكيلا، فنّا ودراما، مسرحا وتمثيلا، هنا في هذه الفترة جعل الشّاعر من الشّعب ملهما له، ومن شعاراته مضامينا له، ومن بطولاته أبياتا له، فيصرخ الثّائر في الشّاعر ويترجم الشّاعر صرخته في قصائده فيؤثر هذا على ذاك، ويؤجّج ذاك النّار المشتعلة فيتّفقان ويتوافقان، فيعلو الصّوت وتتوحّد الكلمة نحو هدف واحد.

إنّ "أحمد مطر" شاعر ثائر ساخر يدعو الجميع من خلال قصائده، والعرب خاصّة إلى الانعتاق والتّحرّر، إنّ لغته الشّعريّة المتميّزة جعلت للشّاعر أثرا كبيرا في نفوس القرّاء؛ لأنّه تقمّص هموم شعبه وتمثّل أداة الدّعوة إلى الحرّيّة المنشودة[16].

لقد تعرّض الشّاعر للضّغوطات من طرف الكثير من الحكومات خاصّة النّظام العراقي، والذي لم يسمح له بإدخال بعض القصاصات الورقيّة وبعض القصائد الشّعريّة، ولكونه شاعر حرّ لم يدنّس قلمه للنّفاق والمدح الكاذب لم يجد إلّا الرّفض والنّفي والاضطهاد.

اجتمعت في الشّاعر صفات عدّة جعلته مؤهّلا لأن يحمل على عاتقه هموم شعبه، ومحاولة النّهوض به ، كما تظهر من خلال قصائده شخصيّته التي تعكس روح الفنّان المتمرّد على قوانين الشّعر والشّعراء، كما تظهر نفس الشّاعر مفعمة بالأسى والحزن، ولكنّه يمزج ذلك بطبيعته السّاخرة، ويرى الشّاعر أنّ سخريّته غير مستغربة؛ لأنّه من خلال قراءاته لواقع المجتمع وجد أنّ من يحسنون السّخريّة والإضحاك هم أكثر النّاس امتلاء بالحزن[17]، وقد انعكس ارتباط الشّاعر بواقعه على شخصيّته الفنّيّة حيث يرى بعض النّقّاد ومنهم "شاكر النّابلسي" أنّ "أحمد مطر" تخلّى عن ذاتيّته ليتحلّل ذاتيّا في شخصيّة الوطن فأصبح الشّاعر الذي ينطق باسم الوطن ويعبّر على لسان الوطن[18]، وقد نصّب نفسه ضميرا داخليّا متمرّدا على الأمّة العربيّة لا لسانا ناطقا خاضعا لتصرّفاتها[19]، وقد عبّر الشّاعر عن أفكاره ومعاناته وتساءل بدهشة: "لكن..من أين جاءتني هذه المعاناة؟ وكيف تكوّنت هذه الأفكار، أليس بسبب كوني سمكة في هذا البحر العاصف"[20].

إنّه ثمرة الغضب السّاطع في وجدان الأمّة وهو مدفوع إلى الإبداع في الشّعر رغما عنه، يقول "أحمد مطر":

لَنْ أَحْمِلَ الْأَقْلَامَ

بَلْ مَخَالِبِي !

لَنْ أَشْحَذَ الْأَفْكَارَ

بَلْ أَنْيَابِي ![21]

أمّا بالنّسبة للمنهج الشّعري فممّا يلاحظه القارئ أنّ قصائده الشّعريّة بالشّكل العمودي، فضلا عن أشكال أخرى، كما له قصيدة على بحر من ابتكاره، كما كتب قصائد ذات البيت الواحد، وكتب في التّفعلة، كما كتب قصائدا مختزلة قصيرة لا تتجاوز العشر كلمات، وكتب قصائد طويلة تتكوّن من عدّة مقاطع[22].

3. أنساق الثّورة والتّمرّد في شعر أحمد مطر:

3. 1 شعر الثّورة على الظّلم والاستبداد:

لقد ارتبط اسم "أحمد مطر" بالشّعر السّياسي، فكتب عن الحكّام والمحكومين، والظّلم والاستبداد، وجعل لمواضيعه السّياسيّة لافتات المتظاهرين يترجم فيها طموحاتهم، نحو عيش كريم، والمطالبة بالحرّيّة، يقول "أحمد مطر":

كَانَتْ مَعِي صَبِيَّةٌ

مَرْبُوطَةٌ مِثْلِي

عَلَى مِرْوَحِيَّةٍ سَقْفِيَّةٍ

جِرَاحُهَا تُبْكِي السَّكَاكِينَ لَهَا

وَنُوحُهَا تَرْثِي لَهُ الْوَحْشِيَّة

حَضَنْتُهَا بِأَدْمُعِي

قُلْتُ لَهَا لَا تَجْزَعِي

مَهْمَا اسْتَطَالَ قَهْرُنَا

لَابُدّ أَنْ تُدْرِكَنَا الْحُرِيَّة

طَلَّعَتْ إِلَيّ

ثُمَّ حَشْرَجَتْ حَشْرَجَةَ الْمَنِيّة

وَا أَسَفَا يَا سَيِّدِي

إِنِّي.. أَنَا الْحُرِّيَّة[23]

إنّ هذه القصّة الشّعريّة يظهر فيها نشدان الحرّيّة المسجونة في نفس الشّاعر وتعاني من القيود في ظلّ الأنظمة الحاكمة "إنّ الشّاعر يشير إلى معاناة الشّعب العربي وفداحة الآلام والأحزان التي أصابت أبناء العرب، وكبت الحرّيّات بأبشع صورة، ويريد بذكر موت الحرّيّة أن يقول أنّ الحرّيّة معدومة في البلاد العربيّة"[24]، وتظهر معاناته في كلّ سطر وفي كلّ كلمة، إنّه شخصيّة حسّاسة بل مرهفة الحسّ يشتكي من الظّلم ويُسمع أنينه وحزنه في كلّ حرف من أبياته، "لقد رضي أحمد أن يكون ناطقا بلسان شعبه، ولا ريب في أنّ هذا حقّق للشّاعر راحة نفسيّة، لأنّ هذا الدّور وفّر له فرصة تقمّص الشّاعر القتيل بعد معاناة النّفي والفقر والغربة والصّدام مع العصر وتنكّر الأصدقاء وشماتة الأعداء"[25]، إنّ ألم العروبة هو الذي فجّر في الشّاعر كلّ هذه المشاعر في شكل نادر منفرد في السّاحة الأدبيّة العربيّة.

لقد انتشرت أشعار "أحمد مطر" وشاعت في كلّ مكان، كما تفشّت أفكاره ودعواته في أوساط الشّباب العربي، فقد كان بركانا صارخا ضدّ كلّ مظاهر الفساد والقمع والانحراف والاضطهاد، وأضحت لا فتاته تزيّن المقالات والمجلّات، بل تعلّق في المقاهي والمطاعم، وصارت أناشيدا للتّلاميذ، ويستعملها الخطباء في المنابر والمهراجانات "لقد آمن مطر بالكلمة الصّادقة، وقدرتها على إيقاظ النّائمين في عالم عربيّ صارت الكلمة فيه مجرّد صدى طبلة تمجّد الطّغيان، ويحملها مثقّفون يفترض فيهم أن يكونوا مشاعل نور وهداية يضيئون للنّاس طريق النّجاة ويشحذون فيهم روح المقاومة والصّمود ورفض الباطل والخنوع"[26]، وعلى الرّغم من أنّ أشعار مطر كانت ممنوعة في كثير من البلاد العربيّة، إلّا أنّها استطاعت أن تتسلّل إلى كلّ قلب موجوع ومضطهد، لقد وجد القارئ العربي في شخصيّة "مطر" شاعرا قادرا على التّأثير في المشاعر وإثارة النّفوس، كما وجد ضالّته وهمّه وألمه الذي كان يخالج فؤاده ولا يستطيع التّعبير عنه ولو بهزّ رأسه، لقد برع" أحمد مطر" في استنطاق الشّعوب وإخراج مكامنهم وترجمة كلّ ما يتهامسون به، "وستظلّ الجماهير تتذكّر تلك الصّور العميقة السّاخرة التي سخر فيها من كلّ شيء خاصّة ظاهرة المخبرين والواشين، كما لم يسخر من شيء، فقد كانوا عنوانا للسّوء والغباء والبلادة، وها هو يرسم صورة كاريكاتوريّة عن كثرتهم وانتشارهم في كلّ مكان"[27]، إنّه الشّعر الذي حمل همّ الوطن والأمّة بكلّ المعاني، بطريقة فنّيّة وإبداعيّة ومتميّزة، بل ومنعدمة المثيل.

تظهر سخرية "مطر" من المجتمع العربي في كثير من لافتاته، كما يستعمل ألفاظا تدلّ على الإيجاب لكنّها في الحقيقة تشير إلى دلالات بعيدة كلّها توحي بغفلة العرب عمّا يحاك ضدّهم من مؤامرات.

3. 2 نسق الهيمنة "الحاكم والمحكوم":

يعتبر خطاب "أحمد مطر" في عامّته حديث موجّه للسّاسة والحكّام، إذ يوجّه لهم تهما وأوصافا لاذعة غير آبه بردّة فعلهم حيث يقول:

السَّلَاطِينُ كِلَاب

اشْتَمُّوا مُنْذُ حُلُولِ اللَّيْلِ حَتّى الْفَجْر

لَنْ يَهْتَزّ الْكُرْسِي

وَلَنْ يَنْهَارَ بَابْ

...

السَّلَاطِينُ دُمًى مِنْ وَرَقْ

فَوْقَ عُرُوشٍ مِنْ وَرَقْ

تَحْتَهَا النِّفْطُ انْدَلَقْ

بَدَلًا مِنْ أَنْ تَلْعَنُوهُمْ

أَشْعِلُوا عُودَ ثِقَابْ[28]

إنّ الحاكم لدى "مطر" ما هو إلّا "دميّة" أو" كلب"، وذلك لتبعيّته للدّول الكبرى، كلب تجرّه أمريكا ودميّة تحرّكها أوروبا ضد شعبه، كما يشير مطر إلى تشبّث الحاكم العربي بالكرسي وذلك حفاظا على نفوذ أمريكا في الوطن العربي يقول مبيّنا ذلك:

فَبِحَقِّ الْبَيْتِ وَالْبَيْتِ الْمُقَنَّعْ

أَعْطِنَا يَا رَبُّ جِنْسِيَّةَ أَمْرِيكَا

لِكَيْ نَحْيَا كِرَامًا

فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّة[29]

إنّ " الحاكم" عند " أحمد مطر" ما هو إلّا إنسان جاهل فاشل لا مروءة له ولا ضمير لديه يبيع ما تحت عرشه لأسياده ويضرب بالسّوط كلّ ما ينطق ولو بكلمة يعادي فيها السّيّدة الكبرى"أمريكا"، وترتبط فكرة الهيمنة بمجموعة من الأنساق الثّقافيّة التي تشترك في الغاية ذاتها من بينها: الذّكورة والأنوثة، السّيّد والعبد، الحاكم والمحكوم، وهي مجموعة ترتيبات تحاول فيها الطّبقة الأعلى التّسلّط والهيمنة على ما هو أدنى بمبرّرات مختلفة، لكنّ ما يميّز شعريّة "مطر" أنّه يطرح هذه الهيمنة بطريقة ساخرة ضاحكة، يقول:

صُورَةُ الْحَاكِمِ فِي كُلِّ اتِّجَاه

أَيْنَمَا سِرْنَا نَرَاه

فِي الْمَقَاهِي

فِي الْمَلَاهِي

فِي الْوِزَارَات

وَالْبَارَات

وَالْأَسْوَاق

وَالتِّلْفَازِ

وَالْمَسْرَحِ

...

وَفِي دَاخِلِ دَوْرَاتِ الْمِيَاهْ

أَيْنَمَا سِرْنَا نَرَاهْ[30]

إنّ صورة الحاكم بوصفه الطّرف المهيمن ظهرت في هذه المقطوعة بوضوح، فالشّاعر يسخر من الحاكم العربي وصوره المعلّقة في كلّ مكان، وعلى الرّغم من مبالغته إلّا أنّه أتى لنا بمقطوعة ساخرة على الواقع العربي،وعلى تهميش المحكوم أمام هيمنة الحاكم يقول "مطر":

فَكُلُّ النّاسِ مَحْكُومُونَ بِالْإِعْدَامْ

إِنْ سَكَتُوا وَإِنْ جَهَرُوا

وَإِنْ صَبَرُوا وَإِنْ ثَأَرُوا

وَإِنْ شَكَرُوا وَإِنْ كَفَرُوا[31]

3. 3 نسق الكراهيّة في شعر مطر:

دائما ما نجد "أحمد مطر" يعبّر عن كرهه الشّديد لأمريكا ولكلّ ما يمتّ لها بصلة، وذلك بسبب هيمنتها على العالم، كما نجده يخاطبها مباشرة ساخرا ومتهكّما، ولا يدلّ ذلك على الكره والحقد الذي يحمله الشّاعر كغيره من العرب الشّرفاء لأمريكا:

إِنْ كَانَ لِأَمْرِيكَا عَهْدٌ

فَلِمَاذَا تَلْقَى التّبْرِيكَا

وَإِذَا كَانَ لَدَيْهَا شَرَفٌ

فَلِمَاذَا تُدْعَى أَمْرِيكَا؟ ![32]

إنّ الشّاعر يكره أمريكا كرها شديدا جعله يبدع مقطوعات لاذعة وصاعقة، لقد اجتمع في قلبه كلّ الكره العربي، فانساب على لسانه كلمات من رصاص مازجا في ذلك الجدّية والتّهكّم والسّخريّة والشّعور بالألم والحزن.

3. 4 الرّبيع العربي وتداعياته في شعر مطر:

لقد تحدّث "أحمد مطر" عن ثورات الرّبيع العربي تصريحا وتلميحا، وتحدّث عن القومية العربيّة، حالما في كلّ سطر بالوحدة العربيّة، إذ استطاع بعث بعض الرّسائل المشفّرة للشّعوب العربيّة وقد استقبلتها بكلّ وعي حتّى جاء اليوم الذي

انتفض فيه وثار ووجد أشعار "أحمد مطر" فعلّقها شعارات على صدره ووساما. ولعلّ من أبرز قصائده التي استطاع التّعبير فيه عن الرّبيع العربي قصيدة "خمسة أشرار" والتي انتشرت في مواقع التّواصل الاجتماعي فحفظها النّاس ورأوا فيها الواقع العربي.

عِنْدِي لُغْزٌ يَا ثُوَّارْ

يَحْكِي عَنْ خَمْسَةِ أَشْرَارْ

الْأَوّلُ يَبْدُو سَبَّاكًا

وَالثّانِي سَاقٍ فِي دَارْ

وَالثّالِثُ يَعْمَلُ مَجْنُوناً

فِي حُوشٍ مِنْ غَيْرِ جِدَارْ

وَالرَّابِعُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ

لَكِنْ فِي الْوَاقِعِ بَشَّارْ

أَمَّا الْخَامِسُ يَا لَلْخَامِسِ

شَيْءٌ مُخْتَلِفُ الْأَطْوَارْ[33]

إنّ هذا اللّغز الذي يقدّمه الشّاعر بين يدي القارئ واضح وجليّ من السّطر الأوّل، إنّه يقصد الحكّام الخمس الذين ثارت عليهم شعوبهم، إنّه يصوّر الرّبيع العربي دون ذكر مصطلحه، إنّ هذه الأبيات موجّهة لكلّ العرب، فهو يتحدّث عن الثّورات التي بدأت في تونس ومصر ثمّ ليبيا وسوريا واليمن، ورسم في كلّ أسطر هذه الأبيات صورة الحكّام دون ذكر أسمائهم وببراعة تامّة استطاع تصوير كلّ منهم فالقارئ ببساطة سيقرأ أسماءهم في ما وصف دون تفكير.

3. 5 الأنا في شعر مطر:

إنّ الأنا عند "مطر" يختلف عن الأنا عند باقي الشّعراء الذين عرفوا به، كـــ"أنا" المتنبّي المرتبط بالفخر والاستعلاء، أمّا "أنا" مطر فقد ارتبط بالتّحدي والشّجاعة فهو يرفع أناه عن كلّ سلطة ويعلن رفضه وعدم تحيّزه لأيّ حزب أو جماعة، يقول في ذلك:

إِنَّنِي لَسْتُ لِحِزْبٍ أَوْ جَمَاعَهْ

إِنَّنِي لَسْتُ لِتَيَّارٍ شِعَارَا

أَوْ لِدُكَّانٍ بِضَاعَهْ

إِنَّنِي الْمَوْجَةُ تَعْلُو حُرَّةً مَا بَيْنَ بَيْنْ

وَتَقْضِي نَحْبَهَا دَوْمًا

لِكَيْ تَرْوِي رِمَالَ الضِّفَتَيْنْ[34]

إنّ الأنا والانتماء عند مطر خطّان متوازيان، لأنّ الانتماء من وجهة نظر الدّارسين يقضي على الأنا ويقتله وبالتّالي تزول الحرّيّة أو الاختيار، والحرّيّة هي الرّكيزة الأساسيّة المحرّكة للأنا المطري[35].

4. خاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع نخلص إلى جملة من النّتائج من أهمّها:

1- إنّ الأنساق الشّعريّة التي حاولنا البحث عنها في الشّعريّة المطريّة لا تختصر فيما ذكرنا فقط، بل قضيّته عظيمة في وحدة الوطن جعلت من شعره مكمنا للمضمرات التي يمكن أن تبرز هنا وهناك.

2- إنّ القراءات في قصائد "مطر" تجعلنا أكثر تحكّما فيها، فالأنساق لا تنتهي ما دامت القراءات مستمرّة، وما دام الشّاعر ينبغ بأبياته ويصف الواقع العربي بكلّ حيثياته، ولن تنتهي ما دام القارئ العربيّ يجد في شعر مطر كلّ همومه وآلامه ومواجعه، وطموحاته وأحلامه.

3- إنّ التّمرّد والرّفض لم يقتصر على الجانب الاجتماعي والسّياسي للمواضيع الشّعرية، بل تجلّى في تمرّد أحمد مطر على الشّكل والوزن المألوفيْن للقصيدة العربيّة.

4- إنّ قصائد "أحمد مطر" نبض الشّارع العربي، إنّه يصرخ طالبا للكرامة والحرّيّة المفقودة، فإن وجدنا أنساقا ثقافية في قصائده فهي أنساق تعبّر عن الخطاب الجماهيريّ الشّعبي الثّائر الذي يدعو إلى الحرّيّة والتّحرّر والانعتاق.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم الحاوي: حركة النّقد الحديث والمعاصر في الشّعر العربي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1984م.
2. إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشّعر العربي الحديث، دار المسيرة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2003م.
3. أحمد إبراهيم، أحمد مطر الشّاعر المنفي، مقال، ساسة بوست، 2017م.
4. أحمد مطر: الأعمال الكاملة، دار الإسراء، فلسطين، ط1، 2013م.
5. أحمد مطر: المجموعة الشّعريّة الكاملة، دار الحرّيّة، بيروت، ط1، 2001م.
6. أحمد مطر: لافتات 6، لندن، ط2، 2012م.
7. علي أحمد سعيد(أدونيس)، الثّابت والمتحوّل، بحث في الاتّباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ج3، ط1، 1978م.
8. علي أحمد سعيد (أدونيس)، فاتحة لنهايات القرن، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1980م.
9. بدوي عبد الرّحمن، دراسات نقديّة في الفلسفة الوجوديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1980م.

10. برويز أحمد زاده هوج، التّناصّ القرآني في شعر أحمد مطر، ومهدي إخوان ثالث، دراسة مقارنة، مجلّة بحوث في الأدب المقارن، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة رازي، إيران، ع16، السّنة4، 2015م.
11. جهاد فاضل: أسئلة الشّعر(حوار مع عبد الرّزّاق عبد الواحد)، الدّار العربيّة للكتاب، بيروت، دط، دت.
12. شاكر النّابلسي، رغيف النّار والحنطة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، دط، دت.
13. صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللّغة العربيّة، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، دط، دت.
14. عبد الكريم حسن، لقاء مع أحمد مطر، مجلّة العالم، لندن، ع185، دت.
15. عبد الله إبراهيم، عبد الله الغذّامي والممارسة النّقديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2003م.
16. عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، ط3، 2005م.
17. عبد الله الغذّامي، عبد النّبي اصطيّف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م.
18. عز الدّين إسماعيل : الشّعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، دار الفكر العربي، بيروت، ط3، دت.
19. علي صيداني، شاكر عامري، صديقة أسدي: أسلوب شعر أحمد مطر السياسي رؤية نقدية، مجلّة كلّيّة التّربيّة الأساسيّة للعلوم التّربويّة، جامعة بابل، العراق، ع21، 2015م.
20. كمال أحمد غنيم، أحمد مطر، سيرة الشّاعر العراقي المعاصر، مقال رابطة أدباء الشّام، 2014م http://www.odabasham.net
21. محفوظ كحوال، أروع قصائد أحمد مطر، أكثر من 230 قصيدة مع حوار، نوميديا للطّباعة والنّشر، قسنطينة، دط، 2012م.
22. محمّد أحمد العزب: ظواهر التّمرّد في الشّعر العربي المعاصر، بحث مقدّم لنيل شهادة الدّكتوراه، كلّيّة اللّغة العربيّة، قسم الأدب والنّقد، جامعة الأزهر، دت.
23. محمد عبد المنعم خفاجي: نقد الشعر، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، دت.
24. أحمد مطر: خمسة أشرار، http://www.alwahdawi.net، 04سبتمبر2012م.
25. نازك الملائكة: مقدّمة شظايا ورماد،، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1989م.
26. ناصر يحي: أحمد مطر، الشّعر سريع الطّلقات، مقال شبكة الجزيرة الإعلامية،11-10-2015م.

6. قائمة الإحالات:

1- عبد الله الغذّامي، عبد النّبي اصطيّف، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004م، ص: 30.
2- ينظر: إبراهيم حاوي، حركة النّقد الحديث والمعاصر في الشّعر العربي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1، 1984م، ص: 159.
3- عز الدّين إسماعيل : الشّعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة، دار الفكر العربي، بيروت، ط3، دت، ص: 13.
4- ينظر: علي أحمد سعيد (أدونيس)، الثّابت والمتحوّل، بحث في الاتّباع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ج3، ط1، 1978م، ص: 16.
5- ينظر: إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشّعر العربي الحديث، دار المسيرة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2003م، ص: 270، 271.
6- ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي: نقد الشعر، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 30.
7- ينظر : عبد الله إبراهيم، عبد الله الغذّامي والممارسة النّقديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2003م، ص: 77.
8- عبد الله الغذّامي: النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، ط3، 2005م، ص: 79.
9- ينظر: صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللّغة العربيّة، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، دط، دت، ص: 140.
10- إبراهيم الحاوي: حركة النّقد الحديث والمعاصر في الشّعر العربي، ص: 200.
11- جهاد فاضل: أسئلة الشّعر(حوار مع عبد الرّزّاق عبد الواحد)، الدّار العربيّة للكتاب، بيروت، دط، دت، ص: 163.
12-ينظر: أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1980م، ص: 264.
13- نازك الملائكة: مقدّمة شظايا ورماد،، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1989م، ص: 07.
14- ينظر: بدوي عبد الرّحمن، دراسات نقديّة في الفلسفة الوجوديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1980م، ص: 219.

15-محمّد أحمد العزب: ظواهر التّمرّد في الشّعر العربي المعاصر، بحث مقدّم لنيل شهادة الدّكتوراه، كلّيّة اللّغة العربيّة، قسم الأدب والنّقد، جامعة الأزهر، دت، ص: 07.

16- ينظر: برويز أحمد زاده هوج، التّناصّ القرآني في شعر أحمد مطر، ومهدي إخوان ثالث، دراسة مقارنة، مجلّة بحوث في الأدب المقارن، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة رازي، إيران، ع16، السّنة4، 2015م، ص: 02.

17- ينظر:عبد الكريم حسن، لقاء مع أحمد مطر، مجلّة العالم، لندن، ع185، دت، ص ص: 52- 54.

18- ينظر: شاكر النّابلسي، رغيف النّار والحنطة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، دط، دت، ص: 240.

19- ينظر: كمال أحمد غنيم، أحمد مطر، سيرة الشّاعر العراقي المعاصر، مقال رابطة أدباء الشّام، 2014م http://www.odabasham.net .

20- ينظر: المرجع نفسه.

21- أحمد مطر: الأعمال الكاملة، دار الإسراء، فلسطين، ط1، 2013م، ص: 221.

22- ينظر : أحمد إبراهيم، أحمد مطر الشّاعر المنفي، مقال، ساسة بوست ، 2017م.

23- أحمد مطر : لافتات6، لندن، ط2، 2012م، ص: 96، 97.

24- علي صيداني، شاكر عامري، صديقة أسدي:أسلوب شعر أحمد مطر السياسي رؤية نقدية، مجلّة كلّيّة التّربيّة الأساسيّة للعلوم التّربويّة، جامعة بابل، العراق، ع21، 2015م، ص: 05.

25- برويز أحمد زاده هوج: التّناصّ القرآني في شعر أحمد مطر ومهدي إخوان ثالث، ص: 02.

26- ناصر يحي: أحمد مطر، الشّعر سريع الطّلقات، مقال شبكة الجزيرة الإعلامية،11-10-2015م.

27- ناصر يحي : المرجع نفسه.

28- أحمد مطر: المجموعة الشّعريّة الكاملة، دار الحرّيّة، بيروت، ط1، 2001م، ص: 183.

29-المرجع نفسه، ص: 138.

30-أحمد مطر: المجموعة الشّعريّة الكاملة، ص: 252.

31-المرجع نفسه، ص: 65.

32- أحمد مطر : المجموعة الشّعريّة الكاملة، ص: 229.

33- أحمد مطر: خمسة أشرار، http://www.alwahdawi.net/articles، 04 سبتمبر2012م.

34-أحمد مطر: لافتات 3، لندن، ص: 99.

35- ينظر: محفوظ كحوال، أروع قصائد أحمد مطر، أكثر من 230 قصيدة مع حوار، نوميديا للطّباعة والنّشر، قسنطينة، دط، 2012م، ص: 19.